الأحزاب الديمقراطية المسيحية: النموذج الألماني

النجاحات والتحديات ومقارنات

رضوان السيد

لستُ غريباً على مؤسسة كونراد أديناور ولا على ألمانيا . فقد حصلتُ من المؤسسة على منحة للدراسات العليا عام 1972 حيث قضيتُ بجامعة توبنغن خمس سنوات وحصلتُ في نهايتها على دكتوراه الفلسفة في الإسلاميات. وفي الدكتوراه الألمانية تخصص رئيسي وتخصصان فرعيان. وكان تخصصي الفرعي الأول في اللاهوت الكاثوليكي و البروتستانتي. أما التخصص الفرعي الثاني فقد كان في اللغات السامية. ومؤسسة كونراد أديناور لمن لا يعرف هي المؤسسة البحثية والخيرية التابعة للحزب الديمقراطي المسيحي. ولذا فأنا شديد الترحيب والسرور والاعتزاز اليوم لأنّ "بيت المستقبل" دعاني للتعليق على محاضرة البروفسور فوغل رئيس الشرف لمؤسسة كونراد أديناور.

لقد قرأت محاضرة البروفسور فوغل قبل أيام، والتي استمعنا إليها الليلة. كما قرأتُ محاضرةً أُخرى عن تجربة الاتحاد الديمقراطي المسيحي للنائب عن الحزب في البرلمان الاتحادي الألماني فرانك هاينرش، ألقاها في لبنان بدعوةٍ من مؤسسة أديان قبل ثلاث سنوات. ولذلك فسأركّزُ تعليقي في ثلاث فقرات أو موضوعات: طبيعة تجربة الحزب الديمقراطي المسيحي، وماذا يمكننا الإفادة منها في لبنان والعالم العربي، والتحديات والفُرَص (والتحديات أكثر من الفُرص) التي تواجهُ علائق الدين بالدولة في لبنان والعالم العربي، وفي أوروبا.

لا أُريد أن أكرّر ما سمعتموهُ من البروفسور فوغل ولو تلخيصاً. ولكنني أريدُ الإشارة إلى النجاحات والتحديات التي تواجهها التجربةُ اليوم. تتمثل النجاحات التي حقّقها الحزب في إقامة نظام ديمقراطي بالبلاد بعد الحرب العالمية الثانية. كما نجح الحزب في إعادة توحيد ألمانيا. ونجح ثالثاً بالإسهام في إقامة الاتحاد الأوروبي. ولا ينبغي أن ننسى أنّ الديمقراطية الألمانية كان عليها أن تتجاوزَ تحدياتٍ ووقائع هائلة: النازية التي تسبّبت بالحرب وخرّبت البلاد، وإعادة الإعمار، وتجاوُز التهديد الشيوعي، وإقامة الاقتصاد الاجتماعي المزدهر. وبالطبع ما كان الديمقراطيون المسيحيون منفردين في خوض التجربة فالشريك الرئيسي دائماً كان الحزب الديمقراطي الاشتراكي، إنما من السبعين سنة للتجربة، خلال ثلثي السبعين وأكثر كان الديمقراطيون المسيحيون هم الحزب الحالكم من طريق الفوز بالأكثرية في الانتخابات

طبعاً. إنها تجربةُ صلبةٌ وناجحةٌ بكل المقاييس، وآخِر الأدلة على صلابتها وانفتاحها أنها هي عامود الاتحاد الأوروبي الآن وواجهت إفلاس اليونان، وتواجه خروج بريطانيا وأخطار التفكك. كما أنها صاحبة المبادرة إلى احتضان اللاجئين السوريين وغيرهم في الأعوام الثلاثة الأخيرة، وقد زادوا على المليون.

تأتي التحديات للحزب الديمقراطي المسيحي وللحزب الديمقراطي الاشتراكي ولألمانيا من أربعة اتجاهات: صعود اليمين المتطرف والراديكاليات الشعبوية الأخرى، والأزمة الاقتصادية العالمية، وتزعزع العلاقات بداخل الاتحاد الأوروبي ومع الولايات المتحدة، وعدم الأطمئنان إلى الشرق الروسي. أهمُّ الأمور أو أكثرها لفتاً للنظر هذا القرف لدى الشباب وكبار السن على حدٍ سواء من الأحزاب الكبيرة. ويرافق ذلك ميول إلى الـ Virtual reality، الواقع الاعتباري، وبعبارةٍ أُخرى إمكان تحقيق الخوارق؛ في حين يُعرضُ السياسيون عن ذلك ويعملون التسويات لأنهم فاسدون. والأمر الآخر الضيق الاقتصادي، وألمانيا في وضع أفضل اقتصادياً من دول الاتحاد الأُخرى لكنّ حقبة الرخاء والوفرة انتهت بالطبع، ومن هذا المدخل يهاجم الشعبويون مسألة الهجرة واللجوء بشراسة ويكسبون من طريق ذلك أصواتاً من الفئات الصغرى التي تشعر بالتهميش وتخاف من البطالة، ومن كبار السن الذين يخافون على تقاعُدهم وعلى الخدمات التي يتمتعون بها. ثم إنّ الزمن في أوروبا والعالم هو زمنُ المحليات، فكل أحد يريد العودة إلى جزيرته وليس البريطانيون فقط. وهناك أخيراً غياب القادة ورجالات الدولة الكبار. ولا يقولنّ أحدٌ إنّ الزمان ليس زمان الأبطال الشموليين أو الديمقراطيين، فهاهم زعماء الشعبويات يبرزون في كل مكان. إنما كيف يمكن الملاءمة بين المحلي والأوروبي والعالمي؟ هناك فئات متوسطة الحجم من الألمان والهنغار والفرنسيين والنمساويين والأميركان والأوستراليين..الخ. لا تُطيقُ اليومَ مواطنيها من الفئات الليبرالية، فكيف نريدها أن تُطيق العربَ أو المسلمين؟ يواجه الأوروبيون والغربيون عموماً إذن مسألة الديمقراطيات الشمولية؛ أي أن يفوز بأصوات الناخبين أُناسٌ لا يحترمون الديمقراطية وحكم القانون. لكنّ ألمانيا وبفضل تماسك الحزب الديمقراطي المسيحي حتى الآن تواجه أخطاراً أقلّ لجهة الشعبويات مما يواجهه الحزب الديمقراطي الاشتراكي.

ونلاحظ أنني ما ذكرتُ شيئاً بعد عن هذه الـ(C) الكبيرة في اسم الحزب الديمقراطي المسيحي، أو (الميم) بالعربية. الـ CDU هو أكبر الأحزاب المسيحية الديمقراطية في أوروبا. وهناك أحزاب مسيحية ديمقراطية أُخرى أهمها الإيطالي الذي فشل فشلاً ذريعاً وتوارى. وعلينا أن نحسب من ضمن نجاحات الـ CDU هذا التآلف الكاثوليكي/ البروتستانتي. فالحلقة الأُولى والعميقة كانت كاثوليكية، وقد ساح البروتستانت طويلاً باتجاه الحزب الديمقراطي

الاشتراكي وحركات اليسار الجديد، ثم عادت فئات واسعة منهم إلى الـ CDU ربما ليس للعضوية، بل للتصويت له في الانتخابات. ولا تنسوا أنّ المستشارة الحالية السيدة ميركل من أصل بروتستانتي من شرق ألمانيا. ما معنى المسيحي في اسم الحزب؟ كان معناه أخلاقياً وتوحيدياً ومعتدلاً بعد الحرب الثانية وحتى في الستينات والسبعينات عندما صعد اليسار المتطرف. لكنْ لا ينبغي أن نخلط بين"المحافظة" و"التدين". فالحلقة الصلبة في تكوين الاتحاد المسيحي عام 1945 جاءت من النُخَب المسيحية المتدينة. وهي نُخَبٌ من الأساتذة مثل البروفسور فوغل تقول بفصل الدين عن الدولة، والإفادة من القيم الدينية، ولا تستخدم الدين في السياسة وذلك لحماية الدين وليس لإقصائه. وما يزال منهم أُناسٌ على هذه الشاكلة في قيادة الحزب، وفي الجامعات. بيد أنّ غالبية ناخبي الـ CDU اليوم هم من المحافظين وليس من المتدينين إذا صحَّ التعبير.

هل يستطيع الحزب النجاح في تجربته الثالثة مع الناخبين، وفي المجال الأوروبي، والأطلسي، كما نجح في التجربتين السابقتين: تجربة النهوض بعد الحرب، وتجربة إعادة توحيد ألمانيا عام 1990؟ هذا يتوقف على عدة أمور: القدرة على الدخول إلى عقول الفئات الشابة للبقاء على المسرح السياسي في المقدمة. وفي المجال الأوروبي: وجود قيادات في فرنسا وإيطاليا وأسبانيا على وجه الخصوص مع الاتحاد. وفي أمر الأطلسي: ما هي سياسات الرئيس ترامب بالفعل؟

هل هناك وجهٌ للمقارنة بين الأوضاع في ألمانيا ولبنان من أجل الإفادة من التجربة الناجحة؟ أنا أرى أنه لا وجه للمقارنة ولا للإفادة، وهذا ليس احتقاراً للتجربة اللبنانية ولا يأساً منها، وإنما لاختلاف المضمون والسياقات. فالتعامُل عندنا ليس بين الدين والدولة انسجاماً أو افتراقاً، بل هو تعامل بين الدولة والطوائف الدينية، ولكل طائفةٍ مصلحتها التي تفترق عن مصلحة الطائفة الأُخرى وقد تتصارع معها. وعندما تتوحد طائفة أو طائفتان كما حصل في ألمانيا بعد الحرب؛ فإنه ليس من أجل النهوض، بل من أجل الصراع. وبين السنة والشيعة عندنا ما صنع الحداد بحيث تظن أن هؤلاء ليسوا على دين واحد. أما المسيحيون فقد بُذلت جهودٌ جبارةٌ طوال أكثر من عقد لتوحيدهم في مواجهة المسلمين السنة على وجه الخصوص باعتبار أنهم هم الذين اغتصبوا حقوقهم، وصاروا مثل الدواعش. ألم تكن هناك أزمنة بعد الاستقلال كانت فيها معالم بارزة للدولة المدنية قد بدأت بالتكون؟ زمن قصير ربما أيام فؤاد شهاب، وقد تحطم في سياق الصراع على فلسطين، والحرب الأهلية، والاستيلاء السوري، ثم الاستيلاء النصروي. الخلاصة أننا أربعة ملايين إنسان أو أكثر، وأننا نحتاج إلى إدارةٍ أو دولة. ولسوء الحظ ليس الدين ميزةً في هذا السياق، لكنه في اعتقادي ليس عقبةً أيضاً. لا تملك

المسيحية اللبنانية رؤيةً بارزةً فيما يتعلق بإقامة دولةٍ عصرية وهم واقعون تحت استنزافات تضاؤل الأعداد، والخوف على المصير، والحمايات التي يؤمنها تحالف الأقليات. أما المسلمون فهم في وضعٍ أسوأ. هناك انقسام ديني وسياسي بين السنة والشيعة. وهناك مشروع دولة دينية أو خاضعة للسيطرة لدى شيعة حزب الله. وهناك تشبث سني مستجد بالدولة اللبنانية، لكنّ معالم المشروع الذي حملته 14 آذار صارت غائمة، ولا قدرة لدى النخب السنية على المبادرة بأي اتجاه.

فلنلتفت إلى المشهد العربي، وهناك نجد الوضع أصعب. والذي أقصده بالالتفات محصور بالعلاقات بين الدين والدولة. عندنا أحزاب سياسية إسلامية هي الأكثر تنظيماً في العالم العربي. وهي تحكم في المغرب وتونس، وتشارك في الكويت والأردن. لكنْ هناك مشكلات كبرى في توجهها الفكري. ففي حين حسم الحزب الديمقراطي المسيحي أمره منذ البداية لفصل الدين عن الدولة، ما تزال الأحزاب السياسية الإسلامية(وبخاصةٍ في مصر والأردن) تتحدث عن تطبيق الشريعة، وكيف تكون الدولة مدنية، وهي ملزَمةٌ بتطبيق دين معين؟ وهناك أمر آخر شديد الأهمية. فالحزب الديمقراطي المسيحي في ألمانيا يقول بالتعدد، وقد حكم أكثر من أربعين سنة، وفيما عدا حظر الحزب الشيوعي، ظلت هناك تعددية سياسية فيه. أما الأنظمة الحاكمة في العالم العربي فإنها لم تسمح لا للإسلاميين ولا لليساريين الديمقراطيين بالتنظيم أو بالعمل. ولذلك يمكن القول إنّ وجود راديكاليات في الأحزاب السياسية الإسلامية، يعود في جزءٍ منه إلى ضغوط الأنظمة. وعلى أي حال لا يمكن حتى الآن المقارنة بين الأحزاب السياسية الإسلامية، والأحزاب المسيحية الديمقراطية في أوروبا، وذلك بسبب اختلاف التاريخ والتجربة للعلاقة بين الدين والدولة، وبسبب الأوضاع الحالية في العالم العربي.

فلكي تستقيم المقارنة بين الأحزاب المسيحية الديمقراطية الأوروبية، والأحزاب العربية الإسلامية، لا بد من أمرين اثنين: الإصلاح الديني، بحيث يخرج الدين من بطن الدولة أو من المنافسة عليها- والأمر الثاني: تجديد تجربة الدولة الوطنية في العالم العربي، بحيث تخرج من الاستبداد والشمولية وصناعة الحروب الأهلية.

سُررتُ بمحاضرة البروفسور فوغل وعزيمته وأمله. وأنا مثله: هو مسيحي متدين، وأنا مسلم متدين. وأود أن تكون وظيفة الدين أو إسهاماته في دولنا قيمية وأخلاقية وليس أكثر أو أقل. وهي النصيحة التي أعطاني إياها البابا بنديكتيوس عندما كان يدرِّسُنا بتوبنغن. وأكّدها لي فيما بعد خصمُهُ البروفسور كينغ. أشكرك حضرة البروفسور وإلى اللقاء.